إشكالية مصطلح الخطاب في الدراسات النقدية

فضالة إبرهيم
قسم اللغة العربية وآدابها ـ كلية الآداب واللغات ـ جامعة البليدة 2

ملخص

تكاد تجمع الدراسات النقدية الحديثة على أن مفهوم الخطاب، غير متفق عليه لتعدد الموضوعات التي يطرحها من جهة، واختلاف الخلفية المعرفية التي ينطلق منها كل دارس من جهة أخرى، لذلك فقد بات من المستحسن توضيح معنى هذا المصطلح، اعتماداً على ما جاء به أوائل من درسه من أعلام الغرب، وبعض النقاد العرب، الذين حاولوا الإسهام في تأصيل هذه المصطلحات في الدراسات الأدبية العربية المعاصرة، وسيتطرق البحث في تناول هذا المصطلح إلى النقاط التالية: مفهوم الخطاب، والخطاب الروائي، الخطاب عند الأسلوبيين، بين الخطاب والنص.

الكلمات المفتاحية: الخطاب، النص، القصة، التلفظ، الملفوظ، الجملة، بنية الخطاب، التناص، الخطاب الروائي، الخطاب الأدبي، الدراسة النقدية، الأسلوبيون.

Abstract

It is almost taken for granted that there is no consensus about the exact definition of the term discourse in critical studies and this due to number of subjects that this concept deals with on the one hand, and the different background from which the researchers com from on the other Hence , it has become incumbent among critics to clarify the meaning of this term while taking into account the fact that the Westerners and some of the Arab critics had taught this concept and therefore had contributed to make such concepts central to the modern Arab literary studies. In order to explore this concept, this research brings to the fore the following points: the difinition of discourse, novelistic discours, discours for the formalists, and last but not least the difference between discourse and text.

Key words : discourse, text, story, enunciation, enunciated, discourse structure, intertextuality, novelistic discourse, literary discourse, literary studies, formalists.

مقدمة

شكّل الخطاب كمفهوم، محور نقاش واسع منذ عقود، ولا زال مستمرا، ويعود سبب ذلك إلى رغبة الباحثين والنقاد في الوصول إلى تحديد المصطلح الذي يشكل أرضية أساسية يمكن التعامل معه، لكن هذا المصطلح عرف اضطرابا نظرا لارتباطه بتصوّرات مختلفة للغة، انعكست على تحديده. إذ هناك من يربطه بالنّص، وهناك كذلك من يربطه بالملفوظ وهناك من يميزه عن اللّغة الّتي تشكل نظاما لمجموعة من القيم المفترضة، وهو بذلك استخدام للغة ضمن سياق خاص، تسعى هذه الدراسة إلى الإسهام في إضاءة جانبا من جوانب إشكالية اضطراب مصطلح الخطاب في الدراسات النقدية لأن الجانب الاصطلاحي يشكل ركيزة أساسية في الحقل المعرفي.

التعريف اللغوي للخطاب

قد وردت كلمة الخطاب في التراث العربي كثيرا انطلاقا من النص القرآن الكريم بصيغ مختلفة منها لفظ خطب خطابا فصل الخطاب خطبة...وهي بمعاني متقاربة في الدلالة وتختصر الدراسة على ما جاء في في قول ابن منظور:" الخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام وقد خاطبه مخاطبة وخطابا وهما يتخاطبان"[1]، وأما الزمخشري فيقول:" خطب خاطبه أحسن الخطاب وهو المواجهة بالكلام وخطب الخطيب خطبة حسنة"[2] يتضح من هذين التعرفين ربط الخطاب والخطابة بوصفها جنسا أدبيا واضح المعالم في تلك الحقبة الزمانية.

مفهوم الخطاب

لعل أبسط تعريف للخطاب - من وجهة نظر لسانيّة ـــ هو ما ذهب إليه اللساني، الفرنسي المعروف" إميل بنيفنيست" E. Benveniste من أن الخطاب هو كل تلفّظ يفترض متحدثاً وسامعاً، تكون للطرف الأول نيّة التأثير في الطرف الثاني بشكل من الأشكال، ومن ثمة، فهو يميز بين نظامين من التلفظ، هما الخطاب والحكاية التاريخية، فالخطاب قوامه جملة الخطابات الشفوية المتنوعة، ذات المستويات العديدة، وجملة الكتابات التي تنقل خطابات شفوية، أو تستعير طبيعتها، وهدفها شأن المراسلا والمذكرات...يختلف عن الحكاية التّاريخيّة في مستويين اثنين، هما: الزمن، وصيغ الضمائر، فالخطاب يوظف كل الأزمنة، في حين لا يكون زمن الحكاية التّاريخيّة إلا زمنا ماضياً، لا يمكن تحديده، كذلك يتعامل الخطاب مع صيغ الضمائر المختلفة، في حين يقتصر توظيف الضمائر في الحكاية التّاريخيّة على صيغة الغائب [3].

يرى "بنيفنيست" في هذا النص، أن الخطاب يتحقق بوجود طرفين (المتحدث والسامع)، الأول يقوم بعملية التأثير، والثاني يخضع للتأثر، ويميز بين تلفظ الخطاب، وتلفظ الحكي التاريخي، بمقولة الضمير والزمن، ويعدّ هذا التعريف انطلاقة نوعية في مفهوم الخطاب، فهو إعلان صريح بالفصل بين الحكاية، المشتملة على أحداث وقعت في الزمن الماضي بتسلسلها السببي، والخطاب الذي يقصد به الطريقة التي تسرد بها تلك الوقائع، من غير التزام بتتابع أزمنتها المتعاقبة، وتسعى إلى التأثير في المتلقي، وتتصرف فيها (الوقائع) بما يقتضيها المقام، فقد لخص "عبد الواحد الحميري" كلام بنيفنيست بقوله: « فالخطاب عند"بنيفنيست" عبارة عن اللغة في حالة فعل، أو بوصفه اللغة بين شركاء التواصل» [4].

يركز" بنيفنيست" على قيمة عملية التلفظ، التي لم تنل اهتمام اللغويين القدامى، ولكنها أضحت مادة جديرة بالاهتمام، نظرا لأنها تنقل اللغة من سكونيتها إلى حركية الاستعمال الفردي (الكلام والخطاب)، كما أنه يحدد العلاقة بين الباث والمتلقي.

إن "بنيفنيست" يراهن على مركز الفاعل المتلفظ في الخطاب، فهو بذلك يكون قد أسهم في إدخال عالم الخطاب إلى اللسانيات، ويعد من الموضوعات الجديدة في حقل دراسات اللسانيات المعاصرة.

دي بوا" وآخرون في معجم اللسانيات، إلى مجموعة من التعاريف للخطاب منها: جون ويشير".
1- الخطاب كلام وضع قيد الممارسة، أما اللغة فتتولها الذات المتكلمة.
2- الخطاب هو وحدة، تعادل أو تفوق الجملة، تشكله متتالية يتحدد على إثرها رسالة لها بداية ونهاية.
3- الخطاب ضمن المنظور البلاغي، هو سلسلة من التطورات على المستوى اللساني، سخرت لأجل الإقناع أو الاستهواء، كما أنها بنيت وفق قواعد محددة.
4- ما تقرّه اللسانيات الحديثة، هو أن مصطلح الخطاب يشير إلى كل ملفوظ أكبر من الجملة، يعتبر من قبيل أنه سلسلة متتالية من الجمل [5]، وصُنِّف الخطاب في المعجم إلى أنواع من حيث مكوناته، فهو لغة في شكلها التطبيقي، وهو أيضا يتكون من جملة فأكثر له بداية وله نهاية، وبلاغيا هو سلسلة من الوحدات، التي أنشئت من أجل الإقناع أو التأثير، وتبدو هذه التعاريف مختصرة، إلى حد أنها لا تفي بإحاطة ماهية الخطاب، فهي تعاريف عامة، وهذه العمومية والاختصار تقتضيها طبيعة المصطلحات في المعاجم.
يعرف "تودوروف" الخطاب الأدبي بأنه خطاب انقطعت الشفافية عنه، معتبرا أن الحديث اللساني العادي هو خطاب شفاف، نرى من خلاله معناه، ولا نكاد نراه هو في ذاته، فهو منفذ بلوري، لا يقوم حاجزا أمام أشعة البصر، بينما يتميز الخطاب الأدبي، بكونه ثخنا غير شفاف، يستوقفك هو نفسه قبل أن يمكّنك من عبوره أو اختراقه، فهو حاجز بلوري طلي صورا ونقوشا وألوانا، يصدّ أشعة البصر أن تتجاوزه[6].
انطلق " تزفيطان تودوروف " في تعريفه للخطاب الأدبي من الشعرية، ومن ثم اهتم بأدبية الخطاب أكثر من اهتمامه بمكوناته، فاكتفى بالمقارنة بين الكلام العادي والخطاب الأدبي، حيث يكون الأول كاشفا عن محتواه من خلال الألفاظ الصريحة، أي من خلال الدال يصل المتلقي إلى المدلول، بينما في الخطاب الأدبي يصبح مدلول الدال الأول دالا للمدلول الثاني، وهو ما يعبر عنه عبد القاهر الجرجاني بـ"معنى المعنى".
يستند مفهوم تحديد الخطاب إلى علم اللسانيات، فبعد النجاح الذي تحقق على مستوى الجملة، تشكلت لدى اللسانيين رغبة كبيرة في تجاوز هذا الحد، وصياغة تصورات تمكن من دراسة الخطاب، باعتباره وحدة كبرى قابلة للوصف النحوي، فالخطاب لديهم «ملفوظ طويل، أو هو متتالية من الجمل، تكون مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر» [7].
وحاول"سعيد يقطين" أن يعرف الخطاب، مستثمرا ما توصل إليه دارسو الغرب في مجال الدراسات اللسانيات وقضايا الخطاب، وقد ركز على مكونات الخطاب، التي تتشكل من الجمل المتعاقبة، تتكون منها وحدة كبرى هي الخطاب.
ويقول "جابر عصفور" في مفهوم الخطاب: « كلمة الخطاب من الكلمات التي أصبحت تحمل دلالات محدثة، تفترن بما ينطوي عليه المشهد الثقافي المعاصر من خصائص مائزة على مستويات عدة... فالخطاب هو العملية الاجتماعية لصنع المعنى وإعادة إنتاجه، وهو أقرب إلى الكلام بالمعنى الموجود عند "دي سوسير"، أي اللغة من حيث هي مستخدمة فعليا بواسطة متحدثين، بعيدا عن دلالة اللغة من حيث هي نسق جامد من العلامات، أو من حيث هي بنية ساكنة مغلقة في فضاء محايد» [8].
لقد جمع "جابر عصفور" في تعريفه بين جزء من تعريف "بنيفنيست"(أطراف الخطاب)، وثنائية "دي سوسير" (اللغة والكلام)، ولا نلحظ جديدا عنده، وفي العموم تبدو الدراسة العربية المعاصرة وإن نجحت في الترجمة والتطبيق تسيطر عليها النظريات الغربية إلى درجة استحالة الخروج عنها، فإن حاول أحدهم الانفلات، تجده يختار من المصطلحات الغربية المناسبة لتعريف ما، ثم يقوم بأسلوبه ينظمها في صياغة جديدة، عسى أن تكسبه أصالة فيما أقدم عليه.

الخطاب الروائي

لا يمكن الحديث عن الخطاب الروائي دون ذكر "ميخائيل باختين"، الذي يعد من الأوائل الذين طرحوا مسألة شعرية الخطاب الروائي، بطريقة مغايرة لمفهوم الخطاب الشعري السائد آنذاك، فهو يلح

على "أسلوبية الجنس الأدبي"، حتى لا يكون هناك فصل بين اللغة، وبين الجنس التعبيري، الذي هو جزء من الذاكرة الجماعية، والذي يطبع كل أسلوب بخاصيته الاجتماعية.
وحينما يعرض "محمد برادة" [9] الخطاب الروائي عند"باختين"، يشير إلى أن معالمه وخصائصه، تتضح وهو في حالة اشتغال داخل النص، حيث تختلف المكونات والوظائف، بحسب فهم الروائي لتلك المكونات والإمكانات، وبحسب فهمه لتاريخ جنس الرواية، وعلاقتها بالإيديولوجية.
اتخذ "باختين" الرواية مجالا لتشييد نظريته عن الرواية، وعن الطابع الغيري للإبداع والتواصل، فالخطاب الروائي ـ في نظره ـ هو التنوع الاجتماعي للغات، وأحيانا للغات والأصوات الفردية، تنوعا منظما أدبيا.
ويرى "باختين" أن نسيج الخطاب الروائي يتميز بصفتين أساسيتين، وهما تعدد "الملفوظات" و"التناص"، وقد حاول توضيح المقصود بالملفوظ، فذكر أنه موضوع لعلم لساني جديد، أو ما يسمى اليوم بالتداولية، ويربطه في معناه بالخطاب وبالكلمة، وكلها عناصر تشتمل على علائق حوارية، تلتقي مع مفهوم التناص في معناه العام.
وهكذا، يؤكد "باختين" أن الخطاب الروائي تتحقق "أسلبته" من خلال الصوغ الحواري الداخلي للخطاب. ومن هنا، يولد الخطاب ـ كما يقول باختين ـ داخل الحوار، مثلما تولد إجابته الحيوية، ويتكون داخل فعل حواري متبادل مع كلمة الآخر بداخل الموضوع، فالخطاب يُمَفْهِم موضوعه بفضل الحوار [10].
ويرى "باختين" أن "الخطاب" يعني اللغة المجسدة ذات الشمول والاكتمال يرتبط ـ بشكل أو بآخر ـ بالكلمة المنطوقة التي تقوم على أساس العلاقات الحوارية، فاللغة ـعنده ـ تحيا فقط في الاختلاط الحواري بين أولئك الذين يستخدمونها. إن هذه العلاقات الحوارية قائمة في مجال الكلمة، وذلك لأن الكلمة ذات طبيعة حوارية بالضرورة [11].
ويمكن أن نستخلص تعريفا للخطاب الروائي من نص "إميل بنيفنيست" [12] ـ السابق ذكره ـ وذلك أن مفهوم الخطاب عنده يمكن أن يتّسع، ليشمل كل الأجناس الأدبية التي يخاطب فيها شخص شخصا آخر، ويعلن عن ذاته باعتباره متكلّما، وينظّم كلامه وفق مقولة الضمائر، فالرواية خطاب أدبي ذو شرعية كاملة، يجمع بين مقولتي الزّمن والضمير.
ويستند " تودوروف" في تعريف الخطاب الروائي إلى رأي" بنيفنيست"، الذي تحدث عن وجود مستويين متميزين للمنطوق أو الفعل الكلامي في اللغة، ألا وهما: مستوى الخطاب، ومستوى القصة، ويشير هذان المستويان إلى تكامل موضوع المنطوق مع النطق، واندماجه به، وفي حالة القصة، كما يقول بنفنيست يتم الاعتناء« بتقديم الوقائع التي حدثت في لحظة من الزمن، دون تدخل الراوي في مجرى السرد»، في حين أنه يعرّف الخطاب بأنه «أي منطوق أو " فعل كلامي" يفترض وجود راو ومستمع، وفي نية الراوي التأثير على المستمع بطريقة ما» [13]، وكل لغة تمتلك عددا من العناصر التي تهدف فقط إلى إخبارنا عن موضوع الفعل الكلامي، وعناصره الأخرى التي تتسبب في تحويل اللغة إلى خطاب، أما العناصر الأخرى فالغاية منها هي تقديم الوقائع التي حدثت فقط [14].
هو واضح في النص، أن " تودوروف" اعتمد ما جاء في تعريف "بنفينست" مع تعليق مختصر، هو امتلاك اللغة عناصر تحويلها إلى خطاب عندما يتعلق الأمر بالفعل الكلامي أما بقية العناصر تتولى تقديم الأحداث أي مجرد سرد.
لعل أهم ما ذكره " تودوروف" بعد تعريف الخطاب الروائي، أمثلة تطبيقية يبين فيها تقسيم اللغة الأدبية لمستوى المنطوق أو الفعل الكلامي. فأخذ جملا لبروست لتوضيح الجمل التي تنتمي إلى مستوى السرد، والجمل التي تنتمي إلى مستوى الخطاب. [15].

مفهوم الخطاب عند الأسلوبيين

ينظر "عبد الرحيم الكردي" [16] إلى الخطاب الروائي من زاوية المنظور الأسلوبي، ويقول بأنه تعامل مع الرواية بصفتها خطاب لغوي، يتكون من عدة خطابات متداخلة، إلا أن الباحث يوضح أن هذا التعدد

غير الذي تحدث عنه "بأختين"، وأشار إلى أن الأسلوبية استفادت من أفكار "بأختين" في موضوع تعدد الأصوات، فمفهوم الخطاب عند الأسلوبيين حوار بين طرفين، تربط بينهما رسالة يصدرها مخاطِب إلى مخاطَب، وبهذا المفهوم فإن العمل القصصي، عبارة عن رسالة من المؤلف إلى القراء، تحتوي على راو ومروي له، وتتضمن مجموعة من الشخصيات تتحاور في ما بينها، وهو ما يعرف في السرديات بالحوار أو الهواجس أو المنولوج ، وبهذا فإن كل مستوى من مستويات الحوار يحتوي المستويات اللاحقة، حتى تشكل هذه الحوارات كلها منظومة متداخلة من الحوارات والرسائل، حاول الباحث أن يصل إلى نتيجة، وهي أن الخطاب الروائي في حقيقته رسائل تصل إلى المتلقي عبر سلسلة من المستويات، تتلاحق فيما بينها.

هذا المفهوم ــ في نظرنا ــ لا يختلف كثيرا عما جاء في قول **"بأختين"** في كتابه **"** الماركسية وفلسفة اللغة **"**، إذ أن الخطاب عنده (بأختين) يعيد مسألة خطاب الآخر، ويتجسد في الخطابات اللسانية، لهذا يراهن على المنهج الاجتماعي في اللسانيات، وضرورة تفسير واقعة خطاب الغير تفسيرا سوسيولسانيا، ويعرّف الخطاب المروي بأنه «خطاب في الخطاب، ولفظ في التلفظ...لكنه في الوقت ذاته خطاب عن الخطاب، وتلفظ عن التلفظ. كما أنه يتمتع باستقلاله البنيوي والدلالي» **(17)**، وتبدو لنا معظم العناصر المحددة للخطاب الروائي، الذي أورده "عبد الرحيم الكردي" مستمدة مما يراه "بأختين" خطابا للرواية.

الخطاب الروائي

لقد خصص" خوسيه ماريا بوثويلو إيڤانكوس" الفصل العاشر من كتابه "نظرية اللغة الأدبية" للحديث عن بنية الخطاب الروائي، سنحاول ــ في عجالة ــ تقديم ما جاء فيه من قضايا الخطاب الروائي.

يشير في البداية إلى ظهور "علم الرواية"، الذي يراه من بين الحدود الكثيرة التي يمكن وضعها داخل الشعرية اللسانية، أو دراسات اللغة الأدبية، وهو حدّ من أكثر هذه الحدود تطورا، وقد أطلق عليه اسم **"**علم الرواية**"**، وقد استشهد عن أهمية تحديد خصائص **"**خطاب الرواية**"** بقول **"**رولان بارث**"** (1966)، مفاده أنه من الصعب جدا أن نتخيل نصا في التحقق الاتصالي لا يتضمن حكايات، فابتداء من تحليل الرواية، والأقصوصة...حتى المحادثة اليومية، مرورا بالنص السينمائي والنكتة، والأسطورة، والمسرح...نجد أنفسنا مضطرين إلى إقامة الخصائص المتوافقة التي تعطي معنى لعلم الرواية، وبعد ذلك تطرق إلى الوسائل التي تساهم مباشرة في تكوين الخطاب الروائي، ومنها بالخصوص اللغة الأدبية، التي تستخدم إجراءات نسقية مشتركة، كالمنظور، والصوت، والزمن، والوصف، وتنظيم المادة، والخطاب القصصي **(18)**.ثم انتقل إلى قضية التفرقة بين القصة والخطاب، التي تعدّ ـ في نظره ـ ملازمة لممارسة النشاط اللغوي، وتجاوز إطار علم الرواية، وقد استعان الباحث في شرح التفريق بين **"**القصة والخطاب**"** بقول لـ"بنفنيست" **(19)**.

ويلخص أهم ما ورد عند **"**بنفنيست**"**، فيقول بأن الحدث(القصة) في الفعل الاتصالي عند من يتكلم وعند من يستمع، يولد مرة أخرى في شكل خطاب، والخطاب يخلق الواقع، ويرتب وينظم تجربة الحدث، إنه يُكوّن النموذج اللغوي الاتصالي لما هو حادث، ويستشهد الباحث ـ في هذه النقطة ـ بما ذهب إليه "جيرار جينيت " الذي ربط التقسيم، الذي ظهر في الكلاسيكيات بين المحاكاة والجانب العاطفي، فتقليد الواقع ومحاكاته، يأتي في الأدب على شكل جانب عاطفي، وإنشاء وتنظيم فني للخطاب، ولهذا فإن الشعرية هي علم الخطابات، وطرق تقليد الواقع **(20)**، ويستخلص من هذه التفرقة، وما قيل حولها في النقد الأدبي، أن علم الرواية يشكل شعرية خطابية، أو نظرية للأنواع الأدبية.

والخطاب الروائي عنده يتضمن عنصرين أساسين، أولهما: القصة يحدد فيها المادة والموضوع، ويمكن تعريف القصة، بأنها متتالية من الأحداث المرتبطة بطريقة منطقية والمتصلة بزمان، والداخلة في مكان، ويقوم بها فاعلون.

وثانيهما: نشاط الحكي، أي الطريقة التي يتم بها سرد الموضوع القصصي، وتنسب إلى "الخطاب"، والخطاب بهذا المفهوم، يشتمل على شخص(القاص)، يحكي (يضع الأحداث في نظام مع

استمرارية، من وجهة نظر أو عدة وجهات نظر قريبة أو بعيدة.) لشخص(المستقبل)، ومن هنا يعلن انضمامه إلى رأي "رولان بارث"، الذي يرى أن الفصل بين القصة والخطاب غير ممكن واقعيا، كما يساند وجهة نظر "جيرار جنيت" في كتابه "الخطاب الجديد للحكاية (1983)، والذي يدعو فيه إلى إعادة كتابة ثنائية القصة/الخطاب في ثلاثية، تضع في حسابها الحكاية récit، بوصفها واقعا موضوعيا، يمكن أن يشمل القصة والخطاب [21]

وهكذا، فإنّ علم الرواية يشمل القصة(مجموعة الأحداث المحكية)، والحكاية (الخطاب أو الموضوع الذي يحكي هذه الأحداث)، والسرد (فعل الحكي) هو النشاط الذي ينتج الخطاب الروائي، ومن خلال هذا العرض تصور خطاطة، توضح مكوّنات الخطاب الروائي.

خطاطة بيانية لبنية الخطاب الروائي [22]

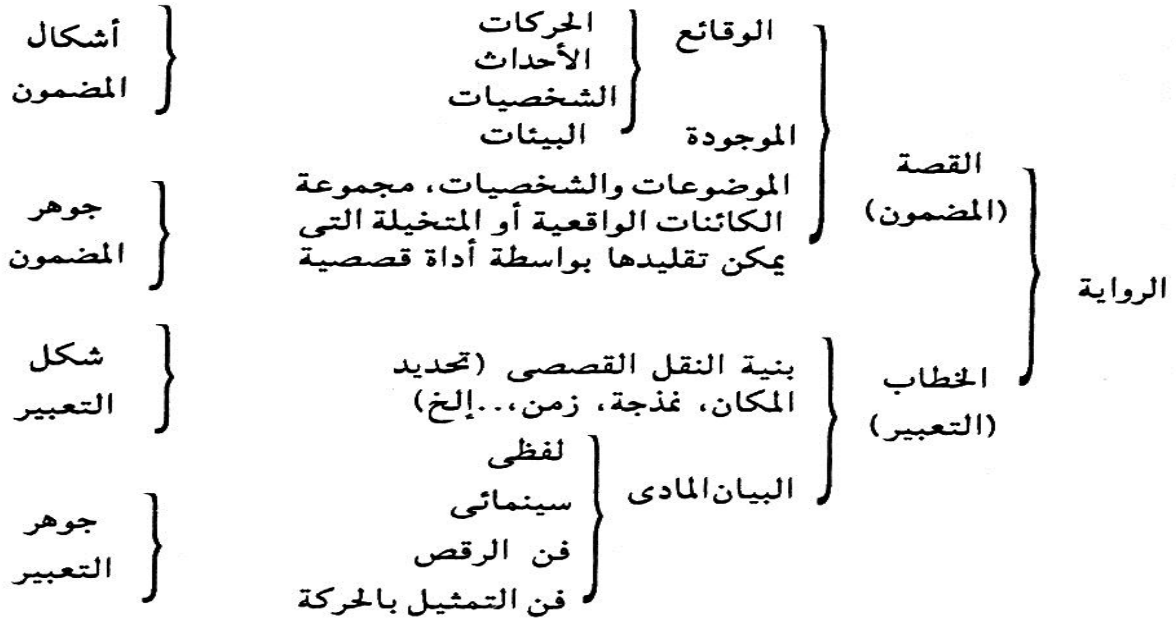

ويحصل الباحث[23] ما يمكن فهمه من الخطاطة في كون الفن القصصي عبارة عن بنية تنحصر في أمرين هما:

1- أن يستوعب القصة والخطاب على أنهما عنصران متضامنان، نظرا لأن الدليل في النظرية يتمثل في واقع له وجهان، حيث يظهر في آن واحد بوصفه تعبيرا ومضمونا.

2- مفهوم الفن القصصي أن يستوعب على أنه علم عام للحكاية.

وإجمالا على ما قيل حول مفهوم الخطاب، أن الدارسين المحدثين ـــ في الغرب ـــ قد اختلفت مواقفهم من تناول مسألة الخطاب، ففريق منهم لم يثر مسالة إمكانية تجاوز الأبنية اللغوية لبنية الجملة، إذ كانت بالنسبة إليهم ـــ بصورة ضمنية ـــ أكبر الوحدات، وفريق آخر أثار المسألة، وذهب إلى اعتبار الجملة أكبر الوحدات اللغوية، ونفى بنية أكبر من بنية الجملة، وانفرد "بنيفنيست" [24] برأي، ذهب فيه إلى إخراج الجملة ذاتها من وحدات اللغة، واعتبرها من وحدات الخطاب، متجاوزا بذلك في الإقصاء مَن اعتبر الجملة أقصى درجات التركيب، وأكبر الوحدات اللغوية، وذهب آخرون إلى اعتباره مسلمة من المسلمات، فأضافوا إلى قواعد الأساس قاعدة، جعلوها قبل قاعدة الجملة، واعتبروا النص بمقتضاها متتالي.

الخطاب والنص

رغم الاعتقاد بأن الخطاب والنص مصطلحان مترادفان، فهناك من حاول من الباحثين الفصل بين مفهومي المصطلحين، ومنهم **"ميشيل ماكارثي"** في قوله :« إن هذين المصطلحين يمكن استخدامهما كمترادفين، وهما يشتركان في الإشارة إلى اللغة خارج حدود الجملة، أي دراسة اللفظ أو الجملة، أو مجموعة الألفاظ، أو جمل كجزء من السياق، ولكن هناك فرقا بين النصوص كنتاج للاستخدام، وبين الخطاب كعملية تفاعل وإنتاج المعنى، سواء كان الفرق على مستوى الكتابة أو الحديث، ومما يزيد الأمر تعقيدا أن مصطلحي **(**Analyse du discours **)**، و"تحليل الخطاب" (Linguistique du Texte) **"**لغويات النص**"**، رتبطا بشكل وثيق بدراسة النصوص المكتوبة، أو النصوص الكلامية، وقد أسهم كلاهما بشكل فعّال في اللغويات التطبيقية، كما أن كليهما لا ينظر إلى اللغة باعتبارها نظاما مجردا، بل ينظران إليها في سياقات اجتماعية، بمعنى أنهما يتعاملان مع منتجي اللغة ومتلقيها، بالقدر نفسه الذي يتعاملان به مع الصيغ اللغوية **(25)**.

لم ينف "ماكارثي" الترادف ــ مطلقا ــ بين المصطلحين من حيث المكونات، ومساهمتهما في دراسة النصوص المكتوبة والشفوية، ويرى أن الفرق بينهما، إنما يكمن في كون النص يُنتج للاستخدام، والخطاب عملية تفاعل لإنتاج المعنى، أي أن التفاعل يقتضي حضور المتكلم والمتلقي، ولو على سبيل الافتراض، رغم ذلك يبقى كلام الباحث يكتنفه بعض الغموض، فمنه ـ مثلا ــ ماذا يعني بقوله: "النص ينتج للاستخدام"؟.

ويشير **"** رابح بوحوش**"** إلى أن التوجه الجديد في اللسانيات أفرز ممارسة نقدية، نتج عنها موقفان:

الأول: حاول استبدال مفهوم الخطاب بالنص، ظنا منه أن الخطاب تصور يختلف عن النص.

الثاني: أنزل المفهومين في حقل واحد دون تمييز ووعي. فلا الأول أصاب، ولا الثاني أحسن صنعا.

والباحث يرى أن الخطاب هو النص، وقد اكتسب هذه التسمية لاتصافه بميزة (التداولية) أو الخطابية، التي تعني كتلة نطقية، تنتقل من مخاطب إلى مخاطب، فتصير "خطابا"، إنها الخاصية التخاطبية التي لا تتشكل إلا بين الناس في توجه بعضهم إلى بعض.

ومن خلال ملاحظاته في التطورات اللسانيات، توصل إلى أن مفهوم الكلام عند "دي سوسير"، قد صار هو النص عند "هيمسلاف"، وما كان يسمى بالنص عند "هيمسلاف"، صار يدعى الخطاب عند "غوستاف غيوم"، واقتنع أن الخطاب هو النص، أما الاختلاف في الاصطلاح فيرده إلى المذاهب، والخلفيات الفلسفية لكل تيار أو مدرسة، وفي نهاية القول، يقرّ بحصول التداخل بين الخطاب والنص، « فالنص هو الخطاب، والخطاب هو النص» **(26)**.

وحاول "عبد الرحيم الكردي" أن يميز بين الخطاب والنص، متخذا الرواية مجالا لحديثه عن الفرق بينهما، فبيّن ذلك في قوله: «إن مصطلح "الخطاب" ينبغي أن يتعلق بمستوى القول في الرواية، أقصد فعل القول وهيئته، مرتبطا بموقع معين...وبهذا فإن الخطاب أعم من الحكي، لأن كل خطاب روائي يشمل في داخله حكيا» **(27)**.

أما مصطلح "النص"، فيختص بالمادة اللغوية المنجزة، والمتمثلة في الكلمات والعبارات المسجلة على صفحات الرواية، فإذا كان الخطاب قولا، فإن النص إذن هو العبارات المقولة، وإذا كان الخطاب ــ كما يقول "بنفينست" ـ تلفظ، فإن النص يصبح هو الملفوظ اللغوي، الذي ينظر إليه بوصفه كيانا مستقلا عن قائله، وعن الموقع الذي قيل فيه، النص لغة مكتوبة لها بنيتها الذاتية المستقلة، والخطاب قول يرتبط بموقع القائل وهيئته». **(28)**

وهكذا، نجد الباحث يفصل بين المصطلحين، بالعلاقة بين التلفظ والملفوظ، ويمكن أن نستخلص من قوله الحوصلة الآتية:

عندما نطلق مصطلح "خطاب"، فإنّ الذهن يتّجه إلى إنجاز لغويّ (تلفظ)، يُربَط فيه بين بنيته الدّاخليّة وظروفه المقاميّة، أي بين مقاله ومقامه، ومستعمليه من متكلِّم ومخاطَب ربط تبعيّةٍ وتعلُّقٍ، وبنية الخطاب لفظيّة خاضعة لوظائف المقام، وظروف التّواصل.

أمّا مصطلح النص، فينصرف إلى مبادئ صياغة بنية الخطابِ وقواعدها (ملفوظ)، أي إلى شكله ونظامه، والعلاقات التي تربط أجزاءه الداخلية بعضها ببعض، فالنّص وحدة لغوية ذات علاقاتٍ داخليّة.
ومجمل القول، فإن الخطاب يقتضي مخاطبا ومخاطبا- ولو على سبيل الافتراض- وظروف تخاطب، أما النص فإنه يقتضي آليات داخلية، تضمن له التماسك اللغوي، والانسجام الدلالي، ولعل هذا ما ذهب إليه إبراهيم صحراوي في قوله: « فإن نظرة إلى النص من حيث كونه بناء لغويا تجعل منه مقولا، أما البحث في ظروف وشروط إنتاجه فتجعل منه خطابا» [29].
ولا بد من التذكير، بأنّ الباحثين اختلفوا في المصطلحات واستعمال المفاهيم، فمنهم من اعتمد والملفوظ. مفهوم النص، ومنهم من اعتمد مفاهيم أخرى، كالخطاب والقول
يقوم مفهوم الخطاب في اللغة على التلفظ أو القول بين طرفين: أحدهما مُخاطِب، وثانيهما مُخاطَب، وقد يتحاوران في شكل حديث حر، فيقال حينئذٍ: إنهما يتخاطبان، فيفهم أحدهما الآخر عن طريق البينة وفصل الخطاب، وهذا ما عبر عنه باختين بأن «الخطاب» يعني اللغة المجسدة ذات الشمول والاكتمال، كما أنه يرتبط بشكل أو بآخر بالكلمة المنطوقة التي تقوم على أساس العلاقات الحوارية سواء داخل أو خارج اللغة من خلال زاوية حوارية،[30] وبذلك فإن المفهوم الاصطلاحي للخطاب يعني «الميدان العام لمجموع المنطوقات، أو مجموعة متميزة من المنطوقات، أو هو ممارسة لها قواعدها تدلُ دلالة وصفٍ على عدد معين من المنطوقات وتشير إليها»[31]، كما أنه عبارة عن «مجموعة من المنطوقات أو الملفوظات التي تكون بدورها مجموعة من التشكيلات الخطابية المحكومة بقواعد التكوين والتحويل»[32].
وفي النهاية يمكننا القول أن مصطلح «الخطاب» يشير إلى الطريقة التي تشكل بها الجُمل نظاماً متتابعاً تُسهم به في نسق كلي متغير وله خصائصه، وعلى نحو يمكن معه أن تتألف الجُمل في نظام بعينه لتشكل نصاً مفرداً، أو تتألف النصوص نفسها في نظام متتابع لتشكل خطاباً أوسع ينطوي على أكثر من نص مفرد، وقد يُوصف الخطاب بأنه مجموعة دالة من أشكال الأداء اللفظي تنتجها مجموعة من العلامات، أو يوصف بأنه مساق من العلاقات المتعينة التي تستخدم لتحقيق أغراض متعينة [33].
يمكن القول أنّ الدلالات والمفاهيم الخاصة بـالخطاب قد تعددت عند الدارسين الغربيين، بتعدد مجالاتهم واختصاصاتهم هذا مع ضرورة الإشارة إلى تداخل العديد من هذه التعريفات.
وكما انتقل إلينا عدد من المصطلحات الغربيّة، انتقل إلى الدراسات النقدية العربيّة المعاصرة، مصطلح الخطاب، وقد صاحب هذا الانتقال فروقات واضحة في الفهم والتعريف من دارس إلى آخر.
والخطاب عموما يمكن اعتباره الطريقة التي تشكِّل بها الجمل نظاماً متتابعاً تسهم به في نسق على نحو يمكن معه أَنْ تتآلف الجمل في خطاب بعينه لتشكّل خطاباً وقد يوصف الخطاب بأنّه مجموعة دالة من أشكال الأداء اللفظي تنتجها مجموعة من العلاقات تستخدم لتحقيق أغراض معينة.
ويبقى مصطلح "الخطاب" مستعصيا على الدراسات النقدية لتحديد تعريفه تجتمع حوله أراء الدارسين هذا يدفعنا إلى أن القول أن مفهوم الخطاب مجال واسع للبحث والدراسة.

المراجع

1. Dictionnaire de Linguistique, Jean Dubois-Mathée Giacomo, Louis Guespin, Christiane Marcellesi, Jean-Baptiste Jean Pierre Mével (2002). Larousse, 150 p.
2. Tzvetan Todorov. Poétique de la prose (1968). Éd Seuil Point. Parais.

3. ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي مؤسسة التاريخ العربي، ط2، 1993.
الزمخشري، أساس البلاغة، تح: مزيد نعيم، شوقي المعرفي، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1998.
4. ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، المرجع السابق، ص.14، 15.
5. ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، المرجع السابق، ص. 54.
6. ميخائيل باختين، شعرية دوستويفسكي، ترجمة: جميل نصيف التكريتي، مراجعة: حياة شرارة، دار
7. توبقال، 1986، الدار البيضاء، المغرب.